خطاب القطيعة مع الدولة لدى الجماعات المتطرفة

الأستاذ الدكتور/ جمال فاروق جبريل محمود

عميد كلية الدعوة الإسلامية السابق

مصر

الحمدُ لله الذي هو فاتحة كل كتاب، وخاتمة كل خطاب، الحمدُ لله على ما أنعم، وعلم من البيان ما لم نعلم، الحمدُ للهِ البديعِ الصفات، الرفيعِ الدرجاتِ، الذي أفاض على خلقهِ من شآبيب كرمه، وأَهَاضيب نِعَمِهِ، ما مهَّد لهُم محجَّة الأدب، وأنشأَ لهم من رياض المدارك العقلية، وحياض المعارف النقلية حدائق مفتنة الأفنان، ومناهل تقنع صَدَى الظمآن، وصلاة وسلامًا على أكمل الأنوار، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد..،

فنحن أمام بحث بعنوان: (خطاب القطيعة مع الدولة لدى الجماعات المتطرفة)، والله أسأل أن يمن على مصر بالأمن والأمان، والسلامة والاطمئنان، وأن يجنبنا شر الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يقينا شرور أهل الشر والسوء، وأن ينعم علينا بالرخاء والاستقرار، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مفهوم خطاب القطيعة :

يتميز المجتمع الصحي بسمات، منها :

١- قيام العلاقة بين أفراده وأطيافه على أساس من المحاورة والمناصحة.

٢- شيوع الاحترام لاسيما بين أرباب وجهات النظر المختلفة.

٣- كون الهدف من الحوار هو الوصول إلى الحق، وليس مجرد إثبات كل طرف لرأيه

ومصلحته الشخصية أو الحزبية.

وعلى المقابل من ذلك فهناك سمات للمجتمع المتَّجه نحو الإخفاق والترهُّل، ومن أخطر هذه السمات التي تدعو إلى القلق: غياب الحوار، أو اتسام العلاقة بين أفراده أو بين أفراده ومؤسساته بالكراهية والعَداء، وهذا هو ما يُعنى بخطاب القطيعة مع الدولة؛ وهو ذلك الخطاب الذي يقوم على اجتناب أو تهديد المخالِف له في الرأي والتوجُّه من الأفراد أو المؤسسات.

أولاً : أسباب خطاب القطيعة:

١- التدين عبر الاكتفاء بالتثقيف الذاتي:

ونعني بهذا العنوان ما يقع فيه البعض حين يرغبون في التزود من العلم الشرعي، فيلجأون إلى مطالعة الكتب الدينية والبحث في المصادر الإسلامية، دون أن تكون لهم مرجعية علمية يتلقون منها، وتُحَدِّد لهم النهج الصحيح في البحث والاطِّلاع، فالعلم ليس كتابًا فحسب، وإنما معلم ومتعلم وكتاب، أما أن يكتفي المتعلم بالكتاب فيجعله معلمًا وشيخًا له فتلك مصيبة كبرى ورزية عُظمى، تُودي بصاحبها إلي الهلكة الفكرية والسلوكية؛ نتيجة القراءة الخاطئة التي ولَّدت له بطبيعة الحال فهمًا خاطئًا، جنح به إلى سلوك معوج، ويحسب أنه يحسن صنعًا! وتَذْكُر بعض المصادر أن دَعيًّا من أدعياء العلم الذين أخذوا العلم من القراءة في الكتب، ولم يتلقه عن أهله الثقات، قرأ يومًا حديثًا هو: " الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام" [١] ، وكان في الطبعة التي قرأ فيها تصحيف في كلمة (الحبة)، فزيدت الباء نقطة، فكُتبت ياء، فأخذ بالحديث كما كُتب خطأ (الحية السوداء)، أخذًا بما هو مكتوب أمامه، وكان هناك مريض تعذر في شفاء مرضه، فدلَّه أحد الناس على دَعيّ العلم، عسى أن يجد عنده دواء يستشفي به، فما أن وصل عنده وقص عليه أمره، حتى قال له: إن دواءك وشفاءك في حية سوداء، ففي الصحيح: الحية السوداء شفاء من كل داء، ولسلامة قصد المريض تحصل على حية سوداء ، فأخذها كدواء، فمات" [٢].

ويقول الإمام الغزالي: " والعامي يَفْرَحُ بِالْخَوْضِ فِي الْعِلْمِ، إِذِ الشَّيْطَانُ يُخَيِّلُ إليه أنك مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْفَضْلِ، وَلا يَزَالُ يُحَبِّبُ إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري، وكل كبيرة يرتكبها العامي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته" [٣].

٢- الارتباط بالأشخاص لا بالفكرة:

يرتبط بعض الأشخاص في قناعتهم الفكرية بمن يثق فيهم من الأشخاص، بصرف النظر عن كون ما قاله يوافق الصواب أو يخالفه، فما دام قال ذلك الشخص الذي يثق فيه قولاً فلا معقب لقوله، ولا راد لرأيه! وقد قال علي بن أبي طالب ﷺ : إن الحق لا يعرف بالرجال، وقال معاذ بن جبل ﷺ: فخذ العلم أنَّى جاءك، فإن على الحق نورًا [٤] .

٣- اختلاط المفاهيم وعدم الإلمام بدلالات الألفاظ:

من أهم ما يساعد على تقريب وجهات النظر، وجمع الفكر على كلمة سواء، تحرير المراد من الألفاظ وتحديد المفاهيم، فإن عدم تحرير المصطلحات يوقع في كثير من الخلط والنزاع، ويؤدي إلى فساد التصور الذي ينبني عليه في الغالب عدم صحة الأحكام [٥]، وبذلك فسَّروا النصوص تفسيرًا خاطئًا، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما يلي:

المثال الأول: الحكم على كل ما لم يفعله النبي ﷺ وعلى كل جديد بأنه بدعة جهلاً وزورًا، وبذلك يُبدِّعون الحياة السياسية المعاصرة، بل ويَحْكُمون على الحكَّام بالابتداع والكفر، في حين أن البدعة كما يُعرفها الشاطبي هي: "طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية" [٦] ، وقال أبو الفضل الغماري:

الـــترك لـــيس بحجـــة في شـــرعنا	لا يقتـــــضي منعًـــــا ولا إيجابـــــا
فمـــن ابتغـــى حظـــرًا بـــترك نبينـــا	ورآه حكمًـــــا صـــــادقًا وصـــــوابا
قـــد ضـــل عـــن نهـــج الأدلـــة كلـــها	بـــل أخطـــأ الحكـــم الـــصحيح وخابـــا
لا حظـــر يمكـــن إلا إنْ نَهْـــيٌ أتـــى	متوعـــــــدًا لمخالفيـــــــه عـــــــذابا
أو ذم فعـــــل مـــــؤذنٌ بعقوبـــــة	أو لفـــظُ تحـــريم يواكـــب عابـــا[٧]

المثال الثاني: اعتقاد أن الدولة تحكم بغير ما أنزل الله جهلاً وغلوًّا، "ومظهر الغلو في هذا يتجلى في تجاهل الفرق بين المعصية السلوكية التي لا تجر إلى أكثر من الفسق،

والمعصية الاعتقاديه التي تزج صاحبها في الكفر، ومن أصول أهل السنة أن المعاصي تفسق ولا تكفر"[٨].

المثال الثالث: اعتقاد أن سبب القتال هو مجرد الكفر جهلاً وبهتانًا، والحق أن الجهاد القتالي شرع لدرء الحرابة والاعتداء، ولا يُشكل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٩].

ولا يشكل على ذلك أيضًا قوله ﷺ: " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ" [١٠]، حيث إن هناك فرقًا في لغة العرب بين (أَقْتُل) و(أُقاتِل)، فالقتل غير القتال، (فَأَقْتُلُ) تعني: ملاحقة الناس في عقر دارهم حتى يدخلوا في الإسلام قسرًا، وأما (أُقاتِل) فعلى وزن (أُفاعِل)، وهي صيغة تقتضي المشاركة، ومعناه: أواجه عدوان الناس بالمثل [١١].

المثال الرابع: اعتقاد أن الإصلاح يبدأ من السيطرة على مقاليد الحكم جهلاً وطمعًا، فإذا وصلت الجماعات المتطرفة إلى السلطة ظهر الخطاب الاستعلائي خصوصًا تجاه مَن يخالفها في آرائها، وإذا ذهبت عن السلطة ظهر الخطاب الدموي؛ وهو ما يؤكد خلل هذا التفكير وزيغه عن الحق.

ثانيًا: آثار خطاب القطيعة :

لخطاب الجماعات المتطرفة آثار خطيرة، فلو كانت المشكلة اقتصادية فسهلٌ حلها، ولو كانت سياسية فسهلٌ حلها كذلك، أما المشكلة حين تكون في الفكر؛ فإن حلها أو محاولة حلها ليس بالأمر الهيِّن، حيث تكمن خطورة المشكلة الفكرية فى أنها لا تموت بموت صاحبها، ولهذا كان خطاب بعضهم منطلقًا لعدد من الجماعات الإرهابية المتطرفة، وإذا أردنا أن نجمل

آثار هذا الخطاب مع الدولة، فأُوجِزها فيما يلي:

١- تشويه الصورة الذهنية لدى الغرب عن الإسلام والمسلمين، وذلك لعدة أسباب، منها:

أ- الممارسات الإرهابية التي تتم باسم الإسلام زورًا وبهتانًا في عدد من الدول.

ب- سيطرة الجماعات الإرهابية المتطرفة على بعض من المراكز الإسلامية في أوروبا والأمريكتين.

جـ - الترويج للشائعات على مواقع التواصل الاجتماعي.

د- اختلاق مسائل وقضايا شرعية ملفقة وتداولها؛ لتشويه صورة علماء الإسلام المعتدلين[١٢].

٢- الطعن في عقيدة الناس حكَّامًا ومحكومين، علماء وعامة، حتى الصحابة- رضوان الله عليهم- لم يسلموا من ذلك.

٣- الإقصاء ورفض الآخر، فمن آثار هذا الخطاب العَدائي أنه شكَّل شرخًا كبيرًا مع مخالِفه برفضه له، أو اتهامه له، أو معاداته له، أو محاربته له، وصار هَمّ هذا الخطاب إثبات خطأ مَن يخالفه في الرأي أو المعتقد، ودحض فكرته، دون التفكير في محاولة إقناعه، أو محاورته، أو التعايش معه[١٣].

٤- نشر الفتنة بين صفوف المجتمع، وذلك بالعمل على إضعاف صورة الدولة لدى أبناء المجتمع، والتقليل من إنجازات الدولة للنهوض بالأوضاع الاقتصادية والصحية والاجتماعية للمواطنين، والعمل على تجنيد الشباب المتهور والمتحمس لمحاولة تخريب الدولة ومنجزاتها، وخدمة المخططات الدولية لهدم الدولة ومؤسساتها.

ثالثًا: علاج خطاب القطيعة :

١- الجدّية في حل هذه المشكلة، ولا يكون ذلك إلا بالإخلاص؛ لأن "التطرف الفكري لم ينشأ بين عشية وضحاها، وإنما نتيجة تراكمات تجمعت على فترات زمنية، حتى أصبح ظاهرة تحتاج إلى مضاعفة الجهد وتكثيف العمل الجاد لدرء هذا الشر، ودفع هذا الفساد"[١٤].

٢- تحمل الإعلام بكافة صوره – المرئية والمقروءة والمسموعة – مسئوليته في التوعية بخطورة هذه الجماعات المتطرفة وضلال أفكارها، والتحذير من الأسباب الداعية إلى خطابها المنحرف المضلل، ومخاطر الآثار المترتبة عليه، والبعد عن التجديف بعيدًا عن عقيدة المجتمع وقيمه وأخلاقه [١٥].

٣- دعم التعليم بكل صوره، والفكر الوسطى المستنير، والعمل على إعداد العلماء وتبنِّيهم منذ الصغر، فالجراثيم لا تنتشر إلا في ظل بيئة مناسبة لنموّها، ولقطع هذه الفجوة لا بد من إعداد العلماء وتعهدهم منذ المرحلة الابتدائية، فعالِمٌ واحد قادر على دحضِ ذيولٍ كثيرةٍ لأدعياء العِلْم.

٤- انطلاق التربية من مبدأ أن جوهر الدعوة إلى الله يتجه بأمل الهداية إلى الأفئدة والعقول في إخلاص وتجرد، بعيدًا عن الأهواء السياسية والأطماع الدنيوية الضيقة.

ونحن لم نستقص كل صور العلاج لخطاب القطيعة، وإنما ذكرنا نماذج منها، ويظل الباب مفتوحًا لأن يدلي كل مخلص بدلوه في هذا الشأن، وذلك حتى نُحَجِّم من آثار خطاب القطيعة، إن لم نقض عليه بالكلية.

الهوامش:

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الحبة السوداء، حديث رقم ٥٦٨٧.

(٢) التطرف الفكري أسبابه ومظاهره وسبل مواجهته، دراسة من منظور الكتاب والسنة، أ.د/ نادي محمود حسن، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- وزارة الأوقاف المصرية، بحث منشور ضمن أعمال ووقائع المؤتمر السابع والعشرين، سنة ٢٠١٧م، ص٨ .

(٣) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ١٦٢/٣، وما بعدها، دار المعرفة – بيروت.

(٤) التطرف الفكري، أ. د/ نادي محمود حسن، ص١٠

(٥) التطرف الفكري، أ. د/ نادي محمود حسن، ص١٠.

(٦) الاعتصام، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، ٥١/١.

(٧) حسن التفهم والدرك لمسألة الترك، عبد الله محمد الصديق الغماري، مكتبة القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢م ، ص ٣.

(٨) مفاهيم يجب أن تصحح، عبد الله مبروك النجار، محمد سالم أبو عاصي، وزارة الأوقاف المصرية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠١٥م، ص ٣٦.

(٩) التوبة: ٥.

(١٠) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، حديث رقم ٢٥.

(١١) مفاهيم يجب أن تصحح، عبد الله مبروك النجار، محمد سالم أبو عاصي، ص ٤٢.

(١٢) التنظيمات الإرهابية في الدول العربية وإجراءات مواجهتها، لواء أ ح/ محمود ضياء الدين عيسى، مجلة آفاق عربية، العدد الأول، مارس ٢٠١٧م، ص ٢١- ٢٣ بتصرف.

(١٣) الخطاب الديني في مواجهة الأزمات المعاصرة.. سلبيات المنقول وسمات المأمول، د/ طارق محمد تيسير ناجي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، ٢٠١٧م، ص١٢٥٠، بتصرف.

(١٤) التطرف الفكري، أ. د/ نادي محمود حسن، ص٢٠.

(١٥) التطرف الفكري، أ. د/ نادي محمود حسن، ص٢٠-٢١.